

كفاءتهم في الجملة. قال لي أحد فضلاء القنيطرة: لقد راقبت سير الحكومة في قضائنا منذ نحو ثلاثين سنة فلم أرها إلا تقذف علينا بأحط عماها على الأغلب فإذا اتفق أن تولى العمل الأكفاء المستقيمون لا تطول مدتهم فيفارقوننا ليخلفهم من لا يرجعون إلى عقل في أحكامهم ولا إلى عدل في نظامهم هذا ما سمعته وحققته من مجموع حوادث نقلت لي إما من المعارف فلا تجد لها في القضاء عيناً ولا أثراً ويكفي بأبي قال في وصف مدرستها الأميريتين أن الأولاد يضربون معلمهم ويعبثون بنحيته وعلامته ولكن ما دامت إدارة المعارف تفضل من يعرف كلستين من التركية على الكفو من المدرسين ممن لم يسعدهم الحظ بتعلمها من أبناء العرب وما دامت مقلدة من رواتب المعلمين هيهات أن تجد أحسن من هذه الطبقة لتعليم أبناء البلاد وعندنا أن الجهل المطبق خير من هذا التعليم الناقص الذي لأن الفلاح الأمي لا يجد له موزقاً إلا من أرضه وماشيته أما الفلاح الذي تعلم هذا الأسلوب فتكبر نفسه عن الزراعة جهلاً منه وغروراً ولا يحسن عملاً اللهم إلا إذا كان خيال درك أو بواباً أو حرساً.

بين قوم هذا حالهم أنشأ صديقنا أحمد حمدي أفندي الداغستاني مطبعة في القنيطرة سماها مطبعة الجولان فعسى أن يخادنه من التوفيق ما خادن بعض قرى سورية أو بليداها التي انتضعت من نعمة الحرية في عهد الدستور ففتحت مطابع وأنشأت جرائد أو مجلات ونجحت في عملها على الجملة.

الحولة

بتنا الليلة السادسة في بانياس آخر عمل الجولان وحقها أن تعد من الحولة إذا نظرنا إلى تقسيمها الطبيعي وبانياس بالقرب من تل القاضي حيث ينبع نهر الأردن أو مدينة دان القديمة وبها آثار مهمة وغيرهم من الإسلام وبالقرب منها حصن الصبية وهذا الحصن هو

القلعة المشرفة عليها في رأس جبل وبينهما نحو نصف ساعة قالوا في وصف بانياس أنها مدينة قديمة كثيرة الحدائق وهوؤها وبيء وتراها كذلك وبها مياه غزيرة وآثار لليونانيين قديمة وقال أبو الفدا بانياس اسم لبلدة صغيرة ذات أشجار محمضات وغيرها وأنهار وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميلة إلى الجنوب والصبيبة اسم قلعتها وهي من الحصون المنيعة قال العزيزي ومدينة بانياس في لحف جبل الثلج (جبل الشيخ) وهو مطل عليها والثلج على رأسه كالعمامة لا يعدم منه صيفاً ولا شتاءً وقال ابن جبير في وصف بانياس أنها مدينة صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور فمر يفضي إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجاء وكانت بيد الإفرنج فاسترجعها نور الدين ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للإفرنج يسمى هونين بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ قال وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج وبين المسلمين لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة فهم يتشاطرون الغلة على استواء ومواشيهم مختلطة ولا حيف يجري بينهم فيها.

وخرائب بانياس على ما انتابها من حوادث الأيام ولا سيما الزلازل تدل على عظمة من استولوا عليها ومياهها غزيرة للغاية لو توفرت العناية بإخراج الصخور والردوم من طريقها لتضاعفت كميتها ولما كانت تقل عن مياه بردى ولالإفرنج كلام طويل في عمران هذه القرية الحقيرة اليوم والمدينة العظيمة أمس فقد قالوا أن اسمها مطابق للاسم اليوناني الذي كان يطلق على هذه المدينة والكرة بأجمعها سميت بذلك لمغارة اختصت بعبادة بان وهي تحت منبع الأردن وقد أنشأ فيها هيرودس معبداً على اسم أغسطس وأنجز ابنه قليس بناء هذه المدينة وسماها قيسرية فيليس تمييزاً لها عن قيسارية فلسطين وقد سماها هيرودس أغريبا الثاني وسماها نيرنياس وهو اسم أطلق عليها مدة قليلة من الزمن وكان

فيها منذ القرن السادس أسقيفة تابعة للكرسي الأنطاكي واستولى عليها الصليبيون لما فتحوا هذه البلاد وهي قلعة الصبيبة التي لم يبق اليوم منها سوى أنقاضها وذلك سنة ١١٢٩ أو ١١٣٠ عندما حاولوا فتح دمشق وقد قال أحد شعرائها في وصف غارتهم:

بشطي نهر داريا ... أمور ما تواتينا
وأقوام رأوا سفك الد ... ما في جلق دينا
أتانا متتا ألف ... عديداً أو يزيدونا
فبعضهم من أندلس ... وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور ... ومن صيدا وتبينا
إذا أبصرتم ابصر ... ت أقواماً مجانينا
تخالهم وقد ركبوا ... قطائنها حرازيها
وبين خيامهم ضموا ال ... خنازر والقرايينا
ورايات وصلباناً ... على مسجد خاتونا

واستولى على بانياس تاج الدين بوري صاحب دمشق سنة ١١٣٢ م وأعيد الاستيلاء عليها سنة ١١٣٩ م واستولى نور الدين على المدينة لا على القلعة سنة ١١٥٧ م ثم أنقذها بودوين الثالث أحد ملوك الصليبيين وعاد نور الدين فاستولى عليها سنة ١١٦٥ م ودك السلطان المعظم حصونها ومعالمها وذلك بعد أن استولى الإفرنج على تلك القلعة من سنة ١١٣٩ إلى ١١٦٤ وأكثر ما فيها إلى الآن من الكتابات العربية من القرن السابع. والإطلال من قلعتها من أجل مناظر سورية لأنها تشرف من جهة على قسم من بلاد الجولان وارض الحولة وبلاد الشقيف وبلاد الأردن.

والحولة بحيرة قال أحدهم أنها المعروفة في الكتب المقدسة بمياه ميروم هكذا يسميها الرومان وأما اليونان فيسموها سمخونيتس واسمها عند العرب الحولة أو الملاحه أو بحر بانياس قال ابن فضل الله وأما بلاد صفد فحدها من القبلة الغور حيث جسر الصنيرة من وراء طبرية ومن شرق الملاحه الفاصلة بين بلاد الشقيف وبين حولة بانياس ويفهم من هذا أن الملاحه هي غير بحيرة الحولة وهي حوض من الماء على شكل زاوية إلا قليلاً يجري منها الأردن عنقها من ٣ إلى ٥ أمتار وفيها طيور مائية كثيرة كالبط ونحوه ويكاد لا يدخل إليها من جهة الشمال لكثرتها وكذلك لكثرة النبات المعروف بالبردي النابت على ضفافها ولا سيما الضفة الشمالية ويتألف من السهل في شمالي البحيرة حوض كبير منظم في الجملة عرضه نحو ساعتين ومعظم هذا الوادي العميق يحتوي على الأكثر على بطائح وتسوء الصحة هناك ولا سيما بعد جفاف قليل من تلك البطائح التي تتخللها عدة قرى.

وحدود الحولة قبلة الطريق الفاصل بين نعران إلى جسر بنات يعقوب إلى قطانة والتليل من الغرب الجاعونة والملاحه والخالصة ويمتد إلى آبل القبح شمالاً ومزرعة المارية وجسر صريد المتصل بمزرعة حنتا واخرويقة ومغور الشباعنة وبانياس من سفح جبل الشيخ وشرقاً عين فيت وخريفة السنن والمفتخرة والغرابه والدردارة.

هذا إجمال عن بلاد الحولة وقد ذكر المقدسي في القرن الرابع أن الإقليم المتوسط الهواء أوسط سورية من الشراة إلى الحولة فانه بلد الحر والنيل والموز والنخيل. ولو جففت الحولة على نحو ما يسعى بعضهم بتجفيفها وهو سهل ممكن لأحييت بها عشرات الألوف من الدوغمات قابله لزراعة البقول والخضر تكفي أهل سورية في فصول السنة الأربعة بل سورية ومصر وغيرهما ولا سيما في فصل الشتاء لمكان الحرارة الطبيعية في تلك الأراضي وكثرة خصبها المريع وشمسها التي لا تكاد تغيب.

كأن شعاع الشمس في كل غدوة ... على ورق الأشجار أول طالع
 دنانير في كف الأشل يضمها ... لقبض وقوى من فروج الأصابع
 فعسى أن تصح العزائم على هذا العمل فينفع في صحة السكان وثروتهم بل صحة البلاد
 الجاورة وثروة سورية عامة وكم فيها من خيرات لو حسن الانتفاع بما لكفينا مؤونة الفقر
 والمجرة.

جبل عامل

لم أجد تحديداً صحيحاً في كتب العرب لهذا الجبل المسمى اليوم بعضه بلاد بشارة أو بلاد
 الشقيف أو بلاد المتولة فقد قال أبو الفدا إن جبل عاملة من الأماكن المشهورة وهو ممتد
 في شرقي الساحل وجنوبه حتى يقرب من صور وعليه الشقيف الذي استرجعه الملك
 الظاهر بيبرس من أيدي الإفرنج وكانت رعاياه في حكم الإفرنج وفي شرقيه وجنوبه
 جبل عوف عجنون وقال أيضاً وأما بنو عاملة فهم أيضاً من القبائل اليمانية التي خرجت
 إلى الشام عند سيل العرم ونزلوا بالقرب من دمشق في جبل هناك يعرف بجبل عاملة فمن
 عاملة عدي بن الرقاع الشاعر.

قال في المشترك شقيف ارنون بين دمشق والساحل بالقرب من بانياس وارنون اسم رجل
 والشقيف المذكور معقل حصين والشقيف أيضاً شقيف تيرون بكسر المشاة الفوقية
 وسكون المشاة التحتية وضم الراء المهلة وواو ونون قال وهي أيضاً قلعة بالقرب صور
 بالساحل.

وقال في شقيف تيرون أنها قلعة منيعة نافلة عن صفت (صلخد) على مسيرة يوم في سمت
 الشمال والشقيف أيضاً شقيف ارنون وهو في سمت الجبال عن شقيف تيرون وشقيف
 ارنون بعضه مغارة منحوتة في الصخر وبعضه له سور وهو حصين جداً.